باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]

۞ وفي «الصحيح» عن ابن المُسيّب عن أَبيه قال: لـمّا حَضَرَت أبا طالبٍ الوفاةُ جاءَه رسولُ الله ﷺ وعندَه عبدُ الله بنُ أَبي أُميَّةَ وأبو جَهلٍ، فقال له: «يا عَمِّ، قلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، كلمةً أُحَاجُّ لكَ بها عندَ الله». فقالا له: أترغَبُ عن مِلَّة عبدِ المطَّلِب؟ فأعادَ عليه النبيُّ ﷺ، فأعادَا.

فكان آخرَ ما قالَ: هو على مِلَّة عبدِ المطَّلِب وأَبَى أنْ يقولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، فقال النبيُّ ﷺ: «لأَستَغفِرَنَّ لكَ ما لـمْ أُنْهَ عنكَ»، فأنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وأَنزَلَ اللهُ في أَبي طالبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن =

= يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[1].

فيه مسائلُ:

الأُولى: تفسيرُ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

الثانية: تفسيرُ قَولِه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

الثالثة: وهي المسألةُ الكبيرةُ، وتفسيرُ قولِه: «قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ»؛ بخِلافِ ما عليه مَن يَدَّعي العِلْمَ.

الرابعة: أنَّ أبا جَهْلٍ ومَن معه يَعرِفونَ مُرادَ النبيِّ ﷺ إذ قالَ للرجُلِ: «قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ»، فقَبَّحَ اللهُ مَن أبو جَهلٍ أعلمُ منه بأَصلِ الإسلامِ. =

(١) أخرجه البخاري: التفسير القرآن (٤٧٧٢)، ومسلم: الإيمان (٢٤).

= **الخامسة**: جِدُّه ﷺ ومُبالَغتُه في إسلامِ عمِّه.

السادسة: الرَّدُّ على مَن زَعَمَ إسلامَ عبدِ المُطَّلِب وأسلافِه.

السابعة: كَونُه ﷺ استَغفَرَ له فلم يُغفَرْ له، بل نُهِيَ عن ذلك.

الثامنة: مَضرَّةُ أصحابِ السُّوءِ على الإنسانِ.

التاسعة: مَضرَّةُ تعظيمِ الأسلافِ والأكابرِ.

العاشرة: الشُّبْهةُ لِلمُبطِلينَ في ذلك؛ لاستِدلالِ أَبي جَهلٍ بذلك.

الحادية عشرة: الشاهدُ لكَونِ الأعمالِ بالخواتِيمِ، لأنه لو قالها لَـنَـفَعتْه.

الثانية عشرة: التأمُّل في كِبَرِ هذه الشُّبْهة في قُلوبِ الضالِّينَ؛ لأنَّ في القصَّة أنَّهم لم يُجادِلوهُ إلا بها، مع مُبالَغتِه ﷺ وتكريرِه؛ فلأَجْلِ عَظَمَتها ووُضوحِها عندهم اقتَصَرُوا =

= عليها[1]. [٥]

[شرح ٥] يقول المؤلف رحمه الله تعالى: (باب قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾).

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيانَ أن النبي ﷺ لا يملك هدايةَ أَحدٍ من الناس، وبهذا يُعلَم أنه لا يَصلُح أن يُعبَد من دون الله، فإذا كان ﷺ لا يملك هدايةَ عمِّه ولا غير عمِّه، فيُعلَم أنه ليس في قدرته التصرف في العباد وإدخال الهدى في قلوبهم.

وإذا كان بهذه المَثَابة لم يصلح أن يُعبَد مَنْ دون الله، فالعبادة إنما تكون للذي يستطيع أن يَهديَ الناس وأن ينفعهم ويضرَّهم، وهو الله وحده ﷻ، المالك لكل شيء، القادر على كل شيء، فهو الذي يستحق أن يُعبَدَ دون سواه.

أما الرسل فقدرتهم محدودة حَسَبَ ما أقدَرَهم الله عليه، فليس في قُدْرة الرسل أن يهدوا الناس الهدايةَ التي معناها قبول الحق وإيثاره، فهي غير هداية البلاغ والبيان، فتلك هي هداية الرسل =

---

(١) ص٢٧٧-٢٧٩.

.....

= وأتباعهم، لكن المقصود هنا هداية التوفيق وقذف النور في القلب، والرضا بالحق وقبوله وإيثاره، فهذه ليست بيد النبي ﷺ ولا بيد غيره من المخلوقات.

فإذا علمنا أنه ﷺ لا يستطيع أن يهدي من أحبَّ، وأن الهدى بيد الله ـ جل وعلا ـ عُلم أن الله هو المستحق للعبادة، وأن الرسول محمداً ﷺ ـ وهو أفضل الناس ـ لا يستحق أن يعبد من دون الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ سبحانه وتعالى.

وقوله: (في الصحيح) أي: صحيح البخاري (عن سعيد بن المسيب) ابن حَزْن بن أبي وَهْب المخزومي، تابعي جليل من فقهاء التابعين، (عن أبيه) وهو المسيب بن حزن المخزومي، وأبوه صحابي جليل.

قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أُمية المخزومي وأبو جهل) وهو أبو الحكم =

.....

= عمرو بن هشام المخزومي، وأبو جهل هذا من أكثر عباد الله كُفراً وأضلِّهم عن سواء السبيل، وكان عبد الله بن أبي أُمية أيضاً كافراً في ذلك الوقت ثم أسلمَ وهداه الله، أما أبو جهل فقُتِل على كفره يوم بدر.

فقال النبي ﷺ لعمِّه وهو في حال شدة المرض: «يا عَمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله» فقال له أبو جهل وصاحبه عبد الله بن أبي أُمية: «أترغَبُ عن مِلَّة عبد المطلب يا أبا طالب»؛ لأنه يعرف أن ملة عبد المطلب ضد «لا إله إلا الله»، فهي عبادة الأحجار والأشجار والأصنام.

فأعاد عليه النبيُّ ﷺ لـمّا قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب فقال: «يا عم، قل: لا إله إلا الله» فأعادا عليه هما أيضاً ـ أبو جهل وعبد الله بن أمية ـ وقالا: أترغب عن ملة عبد المطلب؛ يذكِّرانه الحجةَ الملعونة ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، أي: يذكرانه أنه لا ينبغي لك أن ترغب عن ملَّة آبائك وتتركها وترجع إلى دين ابن أخيك، فأجابهما قائلاً: =

.....

= «هو على ملَّة عبد المطلب»، أي: قال لهما: أنا على ملة عبد المطلب، لكن الراوي لم يستحسن أن يقول: «أنا»، فهكذا يقول: «هو» وهذا من باب التأدب في الألفاظ واختيار الألفاظ المناسبة، إذا كانت لا تغيِّر المعنى، فقال: «هو على ملة عبد المطلب» وامتنع أن يقول: «لا إله إلا الله»، أي: مات على الكفر بالله.

فأبو طالب كان ناصَرَ النبيَّ ﷺ وأحاطه وحماه، وفعل أفعالاً طيبة مع النبي ﷺ، ولكن الله لم يقدِّر له الهداية، وفي هذا عبرة وآية ودلالة على قدرة الله ﷻ وحكمته ـ جل وعلا ـ وأنه هو الحكيم العليم، ومن حكمة الله أن يعلمَ الناسُ أن محمداً ﷺ بشر ليس في استطاعته أن يهدي أحداً من الناس حتى عمَّه، وبهذا يعلم أن العبادة حق لله، وأن محمداً بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا حياة ولا نشوراً، عليه الصلاة والسلام.

ولهذا يقال: إذا جاء البحث المناسب في هذا المقام، في ضلال الناس وعدم هدايتهم، أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَستطعْ أنْ يهدِ عمَّه، لأن هذا الأمرَ بيد الله ـ جلَّ وعلا ـ وليس بيد الناس. =

.....

= فقال له النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك»، وما ذاك إلا لأن أبا طالب قد نصر النبيَّ ﷺ وحماه، فأراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكافئه بعض المكافأة لعله ينفعه، بعدما كان حريصاً على هدايته، ولكن لم يُقدِّر الله له الهداية، فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] فمن مات على الكفر فهو من أصحاب الجحيم، فتركَ النبيُّ ﷺ الاستغفار له.

وهكذا إبراهيمُ استغفر لأبيه ودعا له بالمغفرة: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤]، فمن مات على الكفر بالله لا يُستغفَر له ولا يُدعى له؛ لأنه انتهى إلى النار فلم يعد هناك حيلة.

وأُنزل في أبي طالب تسليةً وتعزيةً للنبي ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] وليس من أحببت هدايته، فبيَّن ﷻ أن النبي لا يملك هداية من أحب هدايته، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ سبحانه وتعالى، والمعنى: لا =

.....

= تجزع فالأمرُ بيدنا لا بيدك، فارضَ بما قسم الله ـ جل وعلا ـ فإنه هو الذي يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يَصلُح للهداية ومن لا يَصلُح لها.

فقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه رآه في النار وفي غَمَرات النار، وأن الله أدخله النارَ بسبب كفره بالله وامتناعه من عبادة الله وحده ﷻ، قال: ﷺ «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضَحْضاح من النار يبلغ كعبيه، يَغْلي منه دماغُه»[1]. كان في الدَّرَكات ولكن شفع فيه النبيُّ ﷺ بالتخفيف، وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ، لا يُشفَع لمشرك إلا هذه الشفاعة، فإن الرسول ﷺ شفع في أبي طالب أن يخفِّفَ الله عنه، فخفَّف عنه وصار في ضَحْضاح من النار مخلَّداً فيها مع الكفار.

أما ما يروى أنه أسلم خُفْية، وأنه أسرَّ بكلمة التوحيد للعباس، فهذه الكلمة لا أصل ولا صحة لها عن النبي ﷺ، وهو =

(١) أخرجه البخاري: المناقب (٣٨٨٥)، ومسلم: الإيمان (٢١٠).

.....

= حديث موضوع باطل، وإنما الثابت أنه لم يُسلِم ولم يقل هذه الكلمة، بل مات على دين قومه.

وفي هذا دلالة ظاهرة على أن الهداية بيد الله ﷻ وأن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا لغيره، وأنه ﷺ عبدٌ مأمور لا يَحسُن أن يُعبَد من دون الله، وأن العبادة حقُّ الله وحده دون غيره ﷻ.

وفيه دلالة أيضاً على أنه لا يُستغفَر للمشركين ولا يُدعَى لهم بالمغفرة ولا بالرحمة ولا بالجنة، وأن الهداية بيد الله وحدَه لا بيد غيره، وهذه هدايةُ التوفيق والإلهام للحق وإدخال النور في القلب.

أما هدايةُ البلاغ والبيان، فهي هداية الرسل وأتباعهم، أي: تُرشِد وتدعو إلى صراط مستقيم وإلى دين الله ـ جل وعلا ـ فالهداية هدايتان:

هداية توفيق والتزام بالحق وبالأدلة: وهذه بيد الله، جل وعلا.

وهداية بلاغ وبيان: وهذه بيد الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة، والله أعلم.